١٧٢٢٧

أ.د. محمد حسن قبرانيان

مساعد الأمين العام وأمين الهيئة العلمية في المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

٨٨٦٤٨٠

دراسات ومقالات

قيم الحوار والتعايش في الرؤية الثقافية والتعليمية الإسلامية

الرؤية الثقافية الإسلامية ووجوب التعليم بها:

الرؤية الثقافية الإسلامية رؤية هادفة، تنطلق من مرجعية مقدّسة للحياة الإسلامية تعطيها شكلها ومضمونها المتميزين. وتستبطن هذه الرؤية بجمل أسس عملية التغيير الاجتماعي الشامل؛ فهي الإطار الذي يجمع في داخله مختلف مجالات التغيير. ومهما اختلف علماء الاجتماع والنفس والاثنر وبولوجيا والإعلام في تحديد مفهوم الثقافة أو الرؤية الثقافية، فإنهم يتفقون على دورها الأساسي في رسم تفاصيل حياة المجتمع والفرد وتحديد أغاطها، أي أنها بكلمة أخرى: العنصر المركب الذي يحدد الأفكار والسلوك والظواهر الاجتماعية. ويعدّها الإمام الخميني (رحمه الله) «المصنع الذي يصنع الإنسان» و«طريق إصلاح المجتمع»[1] أو أنها كما يقول المرحوم مالك بن نبي - «الدستور الذي تتطلبه الحياة العامة، بجميع ما فيها من ضروب التفكير والنوع الاجتماعي[2]».

من هنا، فالتصور الإسلامي للثقافة يتلخص في تصور الإسلام للحياة، او انه «الإسلام حين يصبح الحياة» كما عبّرت «الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي».[٣]

ولهذه الرؤية مرجعية تعطيها مشروعيتها ومضمونها ومنهجها في تطويع الحياة للإسلام، وتتمثل مرجعيتها في القرآن الكريم والسنة الشريفة، كما ان هناك حقائق الخلق والكون التي تشكل مصدراً معرفياً دائم الحركة والديناميكية. ولكي تحقق هذه الرؤية غاياتها ومقاصدها في بناء الحياة الإسلامية، فقد وضعت مهمة رسم خطابها العصري وتحديد مناهجها على عاتق اصحاب الاختصاص من فقهاء ومفكرين وخبراء، ومثقفين إسلاميين، وعلى أسس علمية تتيح استعاب متطلبات المعاصرة؛ لكي يكون العصر الذي تعيشه المجتمعات الجديدة لصيقا بالإسلام ورؤيته الثقافية.

ولا يمكن بلورة هذه الرؤية ومراجعتها باستمرار دون عقول أصيلة متحررة من الجمود، وأجواء منفتحة على النقد البناء والحوار الهادف اللذين يمنحهما مناخ الحرية الفكرية المتوازنة.

من هنا فالحوار والتعايش في رؤية واقع التعليم الديني والثقافة الإسلامية، محكومان بقيم المرجعية الإسلامية الملزمة (القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة)؛ فقيمهما الشرعية والعقلية والاخلاقية هي نفسها قيم الدين الحنيف، أو القيم الانسانية العامة التي لا تتعارض معه.

ومن الواضح ان هذه الرؤية تحتاج لمنهج تعليمي جامع؛ يستوعبها أولاً ويخطط لتعميقها في نفوس الجماهير عبر توجيه المناهج الابتدائية والثانوية والجامعية في كل انحاء العالم الإسلامي، وكذلك بين الاقليات الإسلامية. وهذا ما نسعى لدراسته في هذا الملتقى التعليمي.

أهمية الحوار:

الاختلاف سنة كونية، أعطت للحياة ألواناً مختلفة من التفكير والسلوك، وجعلت التباين بين الناس في رؤاهم ونظراتهم للاشياء هو الأصل، بعد أن كانوا امة واحدة

«وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا»[٤] ومردّ ذلك الى الاختلاف في الطبائع الوراثية والتنشئة والتكوين والتجربة والأهواء وغيرها. فليس ممكناً ـ في الواقع ـ وجود شخصين متفقين في كل الاشياء بنسبة مئة بالمئة، كما لا وجود لشخصين مختلفين بنسبة مئة بالمئة ايضا. فالاختلاف والاتفاق قضيتان نسبيتان تتراوح نسبتهما بين الواحد بالمائة والتسع والتسعين بالمائة. وهذا لايعني عدم وجود حق مطلق، ولكن هذا الحق المطلق هو الذي يحدده الله تعالى فقط أومن يخولهم من عباده كالأنبياء والأوصياء والملائكة. وكذلك تعتبر الفطرة نافذة الهية لمعرفة الحق، كما لا يعطي هذا الاختلاف حقوقا متساوية لكل المختلفين في الانتساب للحق، بل ان للاختلاف مرجعية مطلقة ليست من اختراع المختلفين يقول تعالى: (الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون)[٥] و(ان الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون).[٦] فالحكم لله في مواطن الاختلاف، وحكمه عبّر عنه في كتابه الكريم، الأمر الذي يلغي مفهوم التعددية في مرجعية الاختلاف بالنسبة للمسلمين.

وهنا يأتي الحوار ليعطي للاختلاف بعداً إنسانياً يضعه في شكله الطبيعي، ولا يسمح له بالتحول إلى طاقة تدميرية، بل أنّ الحوار يخفض من مستوى سلبيات الاختلاف ويرفع من مستوى إيجابياته ليكون الاختلاف في هذا الإطار رحمةً وخيراً، ودافعاً للإصلاح والمراجعة المستمرة. وهذا البعد يمنح الحوار مضموناً مصيرياً وموقعاً استراتيجياً في استمرار الحياة بطعمها المستقر، وإبقاء الجنس البشري بمستوى ما حباه الله من عقل وقدرة على التفكير والاختيار.

إنّ الحوار أداة للكشف عن الحقائق والأشياء الخفيّة، ومن خلاله تتم الإجابة على كثير من علامات الاستفهام والإشكاليات العالقة في الذهن، أو تزيد من القناعات الذاتية، كما يمكن من خلاله كشف الباطل ودحضه وكشف مؤثرات ودلائل بطلانه. وبشكل مجمل فإنّ الحوار ينضج الأفكار والقرارات؛ ففي الجانب الفكري والثقافي مثلاً ـ ينمي الحوار الأفكار ويعمقها، ويشذّبها مما يعلق بها من انحراف أو جمود أو شوائب،

ويحرك العقل باتجاه الإبداع والتجديد والتحرر، في الحدود التي تفرضها مرجعية الاختلاف. وفي الجانب السياسي الاجتماعي، يلعب الحوار الدور نفسه في تنضيج القرار الاجتماعي والسياسي وإشعار الآخرين بالمسؤولية وأهمية الموقع الذي يحتلونه، بل أنّ بعض الأنماط تعد في دائرة المسلمين لوناً من ألوان الشورى.

وبالتالي فالحوار في الإسلام يعبر عن قمة حضارية؛ لأنه أسلوب الأنبياء في التبليغ والدعوة. فقد انتشر الإسلام بالحوار والوعظ والمحاجة والقول الحكيم، والذي أوصله إلى أقاصي الدنيا، ولا سيما افريقيا وشرق آسيا وأمريكا، هو الحوار. هذه البلدان التي يقطنها اليوم مئات الملايين من الناس، دخلت الإسلام بالحوار. فالإسلام هو دين الحجة ودحض الباطل بأسلوب الحكمة (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)[٧] ولابد من الإشارة هنا إلى أنّ الحوار ليس الاستراتيجية الوحيدة في نشر الدين والدعوة والتبليغ، رغم أنه استراتيجية أساسية، ورغم أنه موقف يتخذه المسلم أساساً في الحركة، إلاّ أنّ الاستراتيجية تتغيّر وفق موقف الطرف الآخر.

مجالات الحوار:

تتنوع مجالات الحوار الإسلامي بتنوع أطرافها ووسائلها وموضوعاتها، ولهذا التنوع أكثر من معيار للقيم، فعلى أساس معيار أطراف الحوار، يمكن تقسيمه إلى:

ـ حوار بين الأفراد (عامة الناس، أو النخب من علماء الدين والمفكرين والأكاديميين والمثقفين وغيرهم)؛

ـ حوار بين الشعوب؛

ـ حوار بين الجماعات؛

ـ حوار بين المذاهب؛

ـ حوار بين الحكومات (ثنائي أو في إطار المنظمات والمؤسسات)؛

ـ حوار مع الأديان الأخرى؛

ـ حوار مع المدنيات والحضارات الأخرى.

كما ينقسم على أساس معيار الوسائل إلى:

ـ حوار مباشر، يتم بين أطرافه بحضور عامة الناس أو عبر وسائل الاعلام (التلفزيون، الإذاعة... الخ)، وهو الحوار المباشر المفتوح الذي يصطلح عليه عادة بـ«المناظرة»، أمّا الحوار المباشر المغلق، فهو الذي يجري بعيداً عن الآخرين، ويقتصر على المتحاورين وبعض المراقبين.

ـ حوار غير مباشر، عبر الصحافة أو الرسائل أو عبر طرف ثالث.

وعلى أساس معيار المادة أو الموضوع، ينقسم الحوار إلى:

ـ علمي (فقهي، عقائدي، أو مختلف العلوم الإسلامية والإنسانية والاجتماعية أو البحتة والتطبيقية)؛

ـ سياسي (ما يرتبط بالشأن السياسي العملي أو النظري)؛

ـ فكري؛

ـ ثقافي؛

ـ اجتماعي؛

وغيرها.

ومن خلال استعراض هذا التنوع في الحوار، نريد القول أن لكل منه أساليبه الفنية وآدابه وقواعده ومنهجه، وبالتالي فإنّ القيم العلمية والأسلوبية تختلف إلى حد ما بينها. ولكن القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية تبقى قاعدة مشتركة لها جميعاً. وقد ركّزت المرجعية الإسلامية من خلال النصوص على هذه القيم، وفصّلها وشرحها الفقهاء وعلماء الكلام والأخلاق، كل من زاويته ومدخله العلمي. ومع التطور الهائل والتغييرات المتسارعة في أنماط الحياة وأساليب الحوار والتخاطب، دخلت معادلات قيمية جديدة في صياغاتها، وليست جديدة في أصولها، وهي مما ينبغي اكتشافه والتعرف عليه و أسلمته.

عناصر الحوار:

يمكن تقسيم أهم عناصر الحوار إلى: الأطراف، الموضوع، الأهداف، الإدارة، التحكيم، الزمان، المكان، المنهج، الأسلوب، النتائج.

ومن خلال استعراض هذه العناصر بشيء من التفصيل نأتي على البعد القيمي الإسلامي حيال كل منها، بالصورة التي تحقق غايات الحوار، كالغاية الفنية المتمثلة بتقنين حالة الاختلاف والتركيز على إيجابياتها وتفتيت سلبياتها ـ كما ذكرت.

١. اطراف الحوار: ينبغي توفر مجموعة من المؤهلات في شخصية المتحاورين، على الصعد الذاتية والموضوعية، تكفل لنجاح الحوار مدخله الأساسي ومن أهم هذه المؤهلات:

أ. التساوي في الرغبة والتكافؤ في حرية الطرح، فلابد أن لا يكون أحد أطراف الحوار مقحماً أو مجبراً على الحوار أو مضطراً له تحت ضغوط التهديد، بأنواعه: الاجتماعي، الاقتصادي، السياسي، بالسجن أو الموت أو الطرد أو تلبيس التهم، أو تحت ضغوط الحياة والاغراء. فمثل هذا الحوار مهما كانت نتائجه، ليست له قيمة علمية أو دينية أو أخلاقية؛ لأنه يفتقر إلى أبسط أسس الحوار الحقيقي وآدابه؛ لأنّ أطراف الحوار هنا لن تكون متكافئة في القدرة والحرية، فبعضها يحاور من موقع القوة والاقتدار والاستكبار، والآخر من موقع الضعف والاضطهاد؛ فهناك ـ إذن ـ فرق كبير بين الحوار (الثقافي والفكري والسياسي) بين أطراف متكافئة، والحوار بين الغازي (العسكري والثقافي والسياسي) والمنهزم أو المدافع، فالحوار الثقافي والحضاري الحقيقي مثلاً يدور في إطار الاحتكاك أو التبادل الثقافي، في حين أنّ الحوار في إطار الغزو ليس له أي معنى؛ فالغازي الثقافي يسلب من الحوار كل إيجابياته، ويمكن أن يجرى الحوار حتى خلال المعارك العسكرية، فضلا عن المعارك الفكرية والسياسية، بهدف إلقاء الحجة على الخصم، شرط ضمان عنصر التكافؤ في حرية الرأي، وإلاّ يكون حواراً من طرف واحد. وفي السيرة والتاريخ الإسلامي نماذج فذّة من مواقف الحوار أثناء الحرب

لإقناع الخصم ومحاججته في محاولة لتجنب ويلات الحرب وليكفى المسلمون شرها.

ب. التسلح بالعلم والمعرفة في موضوع الحوار، فهو أساسي لدخول الحوار وكسبه موضوعياً: (ها أنتم هؤلاء حاججتم في ما لكم به علم فلم تحاجّون في ما ليس لكم به علم)؛[٨] فالحوار الحقيقي ينبغي أن توضع له مقدمات موضوعية وبسير وفق أسس علمية ولا يتحقق هذا الجانب دون تخصص المتحاورين في موضوع الحوار واحاطتهم الكافية بحقائقه. ويضرب الله تعالى مثلا في من يحاور في أمر وجود الله ووحدانيته وهو لا يفقه شيئاً في هذا المجال (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير)[٩] وحتى لو كان الحق مع الطرف الضعيف علمياً؛ فإنّ هذا الحق سيضيع بين ثنايا الجهل، وقد تترتب عليه آثار سلبية تؤدي إلى ظهور الباطل بمظهر المنتصر، ممّا يتسبب في تزييف الحقيقة وانحراف وجهات نظر عامة الناس. وإذا كان الهدف من الحوار تحقيق فائدة علمية، فينبغي كذلك أن تكون الأطراف ضليعة في مجال موضوع الحوار. وهنا يشترط الإمام الغزالي على طرف الحوار «أن يناظر مع من هو مستقلٌ بالعلم ليستفيد منه إن كان يطلب الحق»[١٠].

ج. التحلّي بسلوكية لائقة، فالغضب والتشنج والتهريج والحقد والرياء والفرح بمساندة الطرف الآخر والاستكبار عن الحق، ستنزع من الحوار أيّة قيمة وتدخله في دائرة المنازعات والصراع، في حين أن الصفات المعاكسة كالهدوء والتروي وضبط النفس واللين والمرونة وعموماً التوازن في المشاعر، سترفع من مستوى الحوار إلى دائرة النجاح والتأثير وتحقيق أفضل النتائج.

وهنا يبيّن الله تعالى لرسوله الكريم قاعدة عامة في التحاور مع الآخرين، تقف على أساس اللين والمرونة والتسامح: (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر)[١١]. فالله تعالى يأمر الرسول(ص) بالتشاور مع من قد أساءوا إليه، بعد أن يعفو عنهم ويستغفر لهم كما أمر ـ من قبل ـ موسى وهارون(ع): (اذهبا إلى فرعون إنّه طغى، فقولا له قولا ليناً لعلّه يتذكر أو يخشى)[١٢]

ونقل المفضّل ـ أحد تلامذة الإمام جعفر الصادق(عليه السلام)ـ حادثة تحمل دلالة قيمية مشرقة في هذا المجال: فخلال تحاوره مع أحد الزنادقة، تشنج الموقف وغضب المفضل عليه، فقال له الزنديق: «إن كنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق فما هكذا يخاطبنا ولا بمثل دليلك يجادل فينا، ولقد سمع من كلامنا اكثر مما سمعت، فما أفحش في خطابنا ولا تعدى في جوابنا، وأنّه الحليم الرزين العاقل الرصين، لا يعتريه خرق ولا طيش ولا نزق، يسمع كلامنا ويصغي إلينا ويتعرّف حجتنا، حتى إذا استفرغنا ما عندنا وظننّا أنّا قطعناه وغلبناه، دحض حجتنا بكلام يسير وخطاب قصير، يلزمنا به الحجة و يقطع العذر ولا نستطيع لجوابه رداً فإن كنت من أصحابه فخاطبنا مثل خطابه»[١٣].

٢. موضوع الحوار: ينبغي قبل بدء الحوار تحديد نقاط الإبهام والاختلاف، والمادة التي يتعين التحاور فيها ليكون الموضوع واضحاً ومحدداً، فالحوار قد ينحرف باتجاهات أخرى ويكون مضيعة للوقت إذا تبيّن لأطراف الحوار أنهم كانوا يتحاورون في موضوعين أو موضوعات مختلفة. وهذا العنصر أطلق عليه العلماء القدامى اصطلاح «تحرير محل النزاع» وقالوا بضرورة تشخيص أبعاد النزاع ليكون الاستدلال منتجاً، وعدّوه شرطاً منطقياً لا حاجة للاستدلال عليه[١٤]، ويفترض هنا لحاظ جميع الجوانب ذات العلاقة بالموضوع؛ فهناك جوانب مهمة قد لا تلحظ، ولكنها تترك أثرها على النتائج.

٣. أهداف الحوار: تكمن قيمة الحوار في هدفيته، والمتمثلة في اكتشاف الحقيقة والتعرف عليها وبلورة شكلها ومضمونها، على اعتبار أن «الحكمة ضالة المؤمن». وهذا الهدف يعطي للتجرد والنزاهة والموضوعة في الحوار معنىً حقيقياً، بالصورة التي يطرحها القرآن الكريم: (وإنّا أو إياكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين)[١٥]. أمّا الحوار الذي لا يحمل هدفاً معيناً ولا يترك أثراً علمياً أو فكرياً، فهو عديم القيمة والفائدة. وتنطبق هذه القاعدة أيضاً على الحوارات التي تدور حول أمور افتراضية وخيالية ولا

علاقة لها بالواقع[١٦]. وتتنوع مناهج الحوار ـ كما سيأتي ـ بتنوع أهدافه، فهناك الحوار النقدي، الذي يتلخص في تقويم كل طرف لممارسات وأفكار الطرف الآخر بشكل نقد موجّه. وللنقد من جانبه آداب وشروط، تبقيه في حدوده الشرعية والعقلانية، وتحافظ فيه على روح الانعتاق والتقويم الصحيح والمحاسبة الهادفة والنقد البنّاء. وهناك أيضاً المدارسة التي هي لون من ألوان الحوار، وهدفها يدور حول الموضوع فقط، ليست لها أهداف خاصة أو ذاتية، وبالتالي الوصول إلى نتائج متفق عليها، و لا توجد لدى أطرافها أحكام نهائية مسبقة. أمّا المحاجّة فهو حوار الإقناع وإقامة الدليل، وهدفه تفنيد وجهات نظر الطرف الآخر ومحاولة استيعابه وجذبه وهدايته، أو إيصال رسالة إلى الآخرين وتنبيههم وتوعيتهم.

٤. الإدارة والرقابة والتحكيم: هذا العنصر الفني ضروري جداً لتحسين أداء الحوار وضمان تحقيق أهدافه وتنفيذ نتائجه. فالإدارة لا تدخل طرفاً في الحوار، بل تتلخص مهمتها في تنظيم الحوار وضبطه وتوفير الفرص المتكافئة للمتحاورين ومراقبة أساليبهم ومناهجهم، ثم التحكيم بينهم في حالات معينة. وتفرض هذه المهام شروطاً ومواصفات في عنصر الإدارة والرقابة والتحكيم أهمها: المقبولية لدى أطراف الحوار كافة، والحياد والموضوعية والتجرّد، وحساب النتائج بدقة، وعدم تغليب طرف على حساب آخر، إلاّ في حدود الحقيقة، وحتى لو كان لهذا الجهاز أو بعض أفراده خلفيات فكرية وسلوكية ورؤى تتفق أو تختلف مع أحد الأطراف، ولكن ينبغي أن لايكون لها مدخلية في الإدارة والتحكيم.

٥. مكان الحوار: مما ينبغي أن يكون عليه مكان الحوار، عدم وجود أي نوع من المؤثرات التي تنعكس سلباً على المراقبين، وقد يتمثل هذا المؤثر في أجواء استفزازية أو انفعالية أو صاخبة، أو مؤثرات ناتجة عن أجواء التهويل؛ فيكون المتحاورون منساقين حينها وراء تأثيرات العقل الجمعي، ومن أمثلة ذلك ما ذكره القرآن الكريم من أجواء الانفعال والاستفزاز التي كان المشركون يخلقونها للتأثير على مسير الحوار الذي

يقوم به الرسول(ص)، ولاسيما بعد اتهامه ـ والعياذ بالله ـ بالجنون، وهنا يطلب القرآن من الرسول(ص) أن يدعوهم إلى نبذ هذا التهويل والصخب، والتأمل في التهم التي وجّهوها له بغية استئناف الحوار في إطار الموعظة الحسنة ولكن بعد أن يتفرقوا ويبعدوا عنهم هذا الجوّ المصطنع : (قل إنّما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا مابصاحبكم من جنة)[١٧] .

ولا شك أنّ ذلك يترك أثره في خلق أجواء خاصة وتأثيرات نفسية هائلة على المتحاورين أو الحضور أو المراقبين.

٦. زمان الحوار: وهو عنصر مهم في اختيار الموضوعات والأهداف، وينبغي في تحديد زمان الحوار مراعاة ظروف أطراف الحوار من النواحي الاجتماعية والنفسية والاستعداد العلمي، وظروف انعكاس الحوار على الآخرين، وأهمية موضوع الحوار زمانياً؛ فربما يكون لموضوع بعينه أهمية خاصة في زمان ما، ثم تعدم هذه الأهمية في زمان آخر.

٧. منهج الحوار: وهو النظام الذي يسلكه الحوار وفقاً لمجموعة من القواعد العامة[١٨]. ومن بديهيات الحوار العلمي أن يكون منهجه واضحاً ومرسوماً سلفاً، ويفترض بأطراف الحوار أن تكون متفقة على قواعده؛ لكي يكون ملزماً لها جميعاً، كما تذكر الآية الكريمة: (أتجادلونني في أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما نزّل الله بها من سلطان)[١٩]، فهذه الأسماء أراد المشركون أن يفرضوها جزءاً من منهج الحوار، ولكنّها لا يمكن أن تكون ملزمة لمن لا يؤمن بهذا الجزء من المنهج.

ونطرح هنا أهم معايير منهج الحوار العلمي في إطار الرؤية الثقافية والتعليمية الإسلامية.

أ. التعارف والتوعية: والمقصود منه تعرّف كل طرف على حدود معينة من حقائق الطرف المقابل ومعتقداته وآرائه، من مصادرها نفسها، وليس من مصادر غيره، ولا سيما أعدائه، بهدف التمكن في الزامه بما ألزم به نفسه والاحتجاج عليه بمصادره

نفسها. وكذلك مبادرة أطراف الحوار إلى التعريف بمعتقداتها ووجهات نظرها، ويدخل في هذا الإطار مبدأ التوعية؛ فالإسلام دين النوعية والتربية، وهو بمقتضى واقعيته وفطريته يقرر لزوم القيام بتوعية أي إنسان يراد له أن ينضم إلى معسكره، وأي مجتمع يراد للإسلام أن ينفذ إلى عمقه... انه يعرض جوهرته الثمينة؛ لأنه يعلم أن قيمتها ستنكشف بكل وضوح للجميع، ولذا فهو يرفض التقليد في العقيدة، ويرفض عملية الإكراه العقائدي، ويدعو اتباعه إلى أن يكونوا أقوياء في البصر والبصيرة ويأمر ـ في مجال التعامل مع الآخرين ـ بالدعوة البينة الواضحة قبل كل شيء[٢٠].

(ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنّني من المسلمين)[٢١]، (قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني)[٢٢]. وبالنسبة إلى الحوار مع غيرالمسلمين، فإنّ البداية تكون بحقائق الرسالة ومعالمها الرئيسة، معززة بالحجج والبراهين، وفي إطار النقاش المنطقي السليم[٢٣]. وتنقل كتب الحديث أنّ الرسول(ص) حين بعث الإمام علي(ع) إلى اليمن قال له: «يا علي لا تقاتلنّ أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام، وأيم الله لئن يهدي الله عزوجل على يديك رجلا خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس وغربت»[٢٤].

ب. الوضوح: أي استخدام المنهج الصحيح بصورة واضحة دون لبس أو توريبة أو التواء، وعدم الخلط بين الحق والباطل، حتى من أجل الوصول إلى الحق كغاية تبررها الوسيلة! يقول الإمام الصادق(ع): «لا تمزج الحق بالباطل، وقليل من الحق يكفي من كثير من الباطل». ومن أساليب الإبهام في الحوار كما يقول الإمام الجويني: الاحتيال على المحاور حتى يخرجه عن محل تساؤله، وتوجيه كلامه إلى وجوه محتملة[٢٥]. إضافة إلى استخدام المغالطات والسفسطة في المنهج.

ج. الموضوعية: ومن أبرز عناصرها التجرد ونبذ التعصب والابتعاد عن القناعات السابقة والمواقف المبيّتة والأحكام المعدة سلفاً خلال تنفيذ الحوار، حتى لو كانت أطراف الحوار على يقين مطلق بمعتقداتها ووجهات نظرها؛ فهذا التجرد يخلق جواً من

الصدق في الوصول إلى الحقيقة كهدف نهائي للحوار، مهما كانت هذه الحقيقة، على النحو الذي يدعو فيه النبي(ص)الآخرين (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين)[٢٦] وهذه الدعوة هي قمة التجرد والاستعداد لتقبل نتائج الحوار مهما كانت وأينما كانت، رغم اليقين المطلق للرسول الأعظم(ص) بصحة معتقداته. يقول الفيض الكاشاني في حديثه عن شروط الحوار: أن يقصدبها إصابة الحق وطلب ظهوره كيف اتفق، لظهور صوابه وغزارة علمه وصحة نظره، فإنّ ذلك مراء منهى بالنهي الأكيد.

ويضيف: «أن يكون في طلب الحق كمنشد ضالّة، يكون شاكراً متى وجدها، ولا يفرق بين أن تظهر على يده أو يدي غيره، فيرى رفقه معيناً لا خصماً، ويشكره إذا عرّفه الخطأ وأظهر الحق»[٢٧]. وهذا يعني أنّ الموضوعية لا تلتقي مع هدف استعراض القابليات العلمية خلال الحوار، أو القدرة على امتلاك أدوات الجدل، أو التنكيل بالخصم. ومن شروط الموضوعية في منهج الحوار تقديم الدليل على الرأي والفكرة برهاناً على صحتها وصدقها: (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)[٢٨]. والشرط الآخر هو التقيد بالحقائق والأفكار التي يعتقدها الطرف الآخر، والاحتجاج بها، وفقاً لقاعدة «الزموهم بما ألزموا به أنفسهم»، وعدم الاحتجاج بما يفهم المحاور من حقائق الآخر، أو الاعتماد على ما ينقله الخصوم والأعداء، وهذا الشرط هو تتمة لمعيار التعارف ـ كما ذكرنا.

د. اعتماد المشتركات: فلابد ـ ابتداءً ـ من اكتشاف الحقائق والمرتكزات المشتركة بين الطرفين؛ لتكون قاعدة رصينة يقف عليها المتحاورون، ومقدمات واقعية ينطلقون منها للوصول إلى حقائق كلية: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم)[٢٩].

٨. أسلوب الحوار: ويقصد به آداب الحوار وسلوكيات المتحاورين، وقد قدّمنا في الحديث عن أطراف الحوار قسماً من المؤهلات السلوكية التي ينبغي أن يكون عليها أسلوب الحوار كاللين والمرونة وضبط النفس والتوازن في المشاعر وغيرها، إضافة إلى

الانفتاح السلوكي المدروس على الطرف الآخر، واحترام مشاعره ومعتقداته، ومحاورته بالحكمة والموعظة الحسنة وبالتي هي أحسن، فهذه الأساليب كافية لتترك في نفسه انطباعاً جيداً عن شخصية المحاور وطبيعة أهدافه ومعتقداته. أمّا الأساليب السلبية، كالتحريض وإثارة الفوضى والشغب والتهريج والتحامل والتشنج والتعصب الأعمى والتكبر واستخدام أسلوب المغالطة والانكماش والتهرب والاستهزاء والسخرية، فهي مرفوضة في الحوار المنشود، وقد نهى الإسلام عن ذلك: (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن)[٣٠]، فكيف بالحوار بين المسلمين أنفسهم! فقيمة الحوار في الرؤية الإسلامية لا تعرف المهاترات والسباب؛ لتسببها في انعكاسات سلبية حادة. يقول تعالى: (و لا تسبّوا الذين يدعون من دون الله فيسبّوا الله عدواً بغير علم).[٣١] وتدخل هنا قيم سلبية أيضاً، كالاتهام والافتراء والتفسق والتهديد بالإخراج عن الدين والرمي بالارتداد، دون تمحيص وبحث عقيدي وفقهي واف، فللإرتداد والتكفير معايير وقواعد دقيقة جداً بحثها الفقه الإسلامي بعناية، بالصورة التي لا يكون فيها هضم لحق أحد وسلب لحقوقه الاجتماعية الإنسانية. فالتسرع في إطلاق الأحكام خلال الحوار لتحقيق أجواء غير موضوعية، تتقاطع تماماً مع الرؤية الإسلامية، فضلا عن أنّ هذه الأساليب ـ لا سيما التهديد بالعدوان وسلب الحقوق الاجتماعية والحكم المتسرّع وغير المدروس بالردة والكفر ـ تؤدي إلى وضع عكسي، ونجد أنها تسببت في بروز ردود فعل عنيفة ضد الدين، بالصورة التي حدثت حيال أساليب الكنيسة في التعامل مع الآخرين خلال عصور اوربا الوسطى، ثم أدّت إلى ظهور ألوان فاقعة من الإلحاد والانحراف والعلمانية والسقوط والتطرف.

والإسلام يأمر بعدم مواصلة الحوار عند تجاوز الطرف الآخر حدود الحوار وآدابه كممارسة الاضطهاد والتهديد والافتراء والتهريج:(أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم)[٣٢]، أو إصراره على عدم قبول الدليل والحجة والبرهان، رغم وضوحها وقاطعيتها: (وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين)[٣٣]،

حينما يدخل الحوار مرحلة العبث وتضييع الوقت، ويستحيل خلالها تحقيق فائدة بالصورة التي يصف فيها القرآن الكريم حوار رسول الله(ص) مع الكافرين: (إنّ الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة)[٣٤].

من جهة أخرى، ينبغي اتفاق الأطراف على لغة حوار مشتركة[٣٥]، وعلى مستوى علمي وفكري معين من اللغة؛ لكي يحصل التكافؤ في إيصال الرأي والرأي الآخر، كما في الحديث الشريف: «نحن معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم». والواقع أنّ الخطاب الإسلامي الجديد المتطور، ينبغي أن يسود لغة الحوار الإسلامي المعاصر؛ فلكل مرحلة خطابها ولكل مرحلة لغتها وأساليبها الفنية الناجحة في الحوار، على اعتبار أنّ هذا الجانب متجدد يدخل في إطار المتغيرات، شرط ان لا يخرج التجديد عن الثوابت الاسلوبية في الحوار الإسلامي، وهذا التجديد تعبير عن دينامية الإسلام وقدرته المطلقة على استيعاب كل متطلبات الزمان والمكان وتلبية حاجاتهما.

٩. نتائج الحوار: وهي ما يترتب على الحوار بعد انتهائه من حقائق وأرقام جديدة تعلن عن تفوق أو انتصار أو براءة أحد أطراف الحوار، وتؤدي بالطرف الآخر إلى التحول في الرأى كلياً أو جزئياً أو تدفعه لمراجعة ذاتية لآرائه ومعتقداته التي تعرّضت للنقد والاهتزاز والهزيمة، وكذلك مراجعة أخرى لأساليبه ومنهجه وخطابه. وقد ينتهي الحوار بتراضي الطرفين وتفاهمهما أو تساويهما في النصر والهزيمة، أو إقدامهما على حالة وسط جديدة. والمهم هنا هو قبول كل أطراف الحوار بالنتائج مهما كانت، وعدم التعصّب والاعتزاز بالخطأ. وبديهي أن يكون لجهاز الإدارة والتحكيم الدور الأساسي في حساب النتائج، بالوسائل الموضوعية التي سبقت الإشارة إليها.

وقد يكون مفيداً هنا طرح تجربة الجمهورية الإسلامية الإيرانية في مجال الحوار، فهذه التجربة دون شك غنية كمّاً ونوعاً ولعلّ نجاح الجمهورية الإسلامية في دفع هيئة الأمم المتحدة لاقرار مشروعها بتسمية عام ٢٠٠١ م عاماً لحوار الحضارات، هو تعبير

عن نضوج تجربة الحوار فيها، وبناءً على ذلك، تم تأسيس مركز علمي تخصصي في طهران يأخذ على عاتقه المساهمة في تنفذ مشروع الحوار بين الحضارات. وسبق للجمهورية الإسلامية أن طرحت عدة مشاريع رائدة أخرى، تحولت بمرور الزمن إلى مؤسسات وأجهزة فاعلة، وفي مقدمتها مشروع الحوار بين المذاهب الإسلامية، الذي نشط منذ أوائل الثمانينات، ثم تبلور في المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، و كذلك المؤتمر العالمي السنوي للفكر الإسلامي، و مؤخرا في المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الايسسكو) ومشروع الحوار بين الأديان الذي يمتلك أمانة عامة دائمة تعقد ملتقيات ومؤتمرات دورية على مدار السنة. أمّا في الشأن الداخلي، فإنّ الحوار الدائم والمناظرات بين الجماعات السياسية والاتجاهات الفكرية والثقافية عبر وسائل الاعلام والصحافة أو في التجمعات والندوات، يكاد يكون المنشط الأساسي الذي يميّز الساحة الإيرانية. ولعل آلية الحوار والنقد التي أقرتها الثورة الإسلامية منذ اليوم الأوّل، ساهمت كثيراً في كشف السلبيات، وفي النظرة إلى المشاكل والمعوقات نظرة موضوعية وواقعية. ولا زال الحوار والنقد البنّاء يعطيان لمناخ الثورة مرونة عالية في التعامل مع قضاياها؛ لتأتي المعالجات والحلول في إطار دراسات واعية تستوعب الرأي والرأي الآخر.

التعايش بين الشعوب في الرؤية الإسلامية:

في أجواء الاختلاف يكون التعايش على أساس التعددية التي يرتضيها الإسلام، هو الحل الكفيل بتجنب مشاكل الصراع والتضارب في الرؤى والأفكار والمعتقدات بشتّى ألوانها ولا يعني التعايش القبول بنسق واحد من التفكير والسلوك، وصهر الجميع في بوتقته، كما لا يعني التنازل عن الحق أو توزيعه على المتعايشين بنسبة متساوية، وفقاً لمفهوم التعددية «بلوراليزم» الذي يفهمه الغرب، بل يعني أن يحتفظ كل طرف بوضعه الخاص، ويمارس نشاطه الديني أو المذهبي أو الفكري أو السياسي، في إطار الحقوق

والحريات العامة التي يكفلها الإسلام بضامنيها المتوازنة والمرشدة، والتي لا تسمح لأي طرف بسلب حقوق الآخرين أو الإخلال في أمن المجتمع، مهما بلغت قوة هذا الطرف عدّة وعدداً. والصورة المثلى للتعايش هي صورة دولة المدينة التي كان اليهودي والنصراني يعيشان فيها بأمان إلى جانب المسلم وفي كنف الدولة الإسلامية، وكان الحبشي والرومي والفارسي يتمتعون فيها بكل حقوق المواطنة كالعربي تماماً، وهكذا تعايش المهاجرون إلى جانب الأنصار، وتعايش الأوس والخزرج معاً، بل كان يعيش فيها أتباع التيارات الفكرية والسياسية التي تشكّل لوناً من المعارضة، وفي المقدمة تيار المنافقين والمشركين: (قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين)[٣٦]. لقد كان الجميع يدركون حقوقهم وواجباتهم ويمارسونها بالصورة التي قننها الإسلام.

وتستند الرؤية الإسلامية في مجال التعايش مع الآخرين إلى اساسين رئيسيين، هما:

١. المصلحة الإسلامية العليا على ضوء الواقع القائم؛

٢. الصلات والرحمة الإنسانية والعلاقات الأخلاقية.

ويستقي التشريع الإسلامي في كل مجالاته من هذين المعينين فيعتبران من أهم سمات التشريع الإسلامي في شتى جوانبه. أمّا العناصر الرئيسية التي تحدد نوعية العلاقة بين المسلمين وغيرهم كآلية للتعايش، فأهمها:

١. الأمة... النموذج: يصف القرآن الكريم الأمة الإسلامية بالوسطية، يريد به النموذج الاسمى، والأمة الشاهدة التي كانت خير أمة اخرجت للناس، وهذا العنصر يدفع الأمة باتجاه السمو والتكامل في كل المجالات، والاستفادة الأكمل من تجارب الآخرين، ويعني ذلك الانفتاح على كل مجالات الحياة وحمل رسالة إنسانية حضارية كبرى.

٢. المبدئية: وتقضي بنوعين من التعايش: الأوّل بين المؤمنين، وهو تعايش أخوي. ويعني وحدة الأفراد في مجمل الشؤون، والنوع الثاني مع الآخرين، ويحدد طبيعته مقدار

قرب أو بعد هؤلاء عن المبدأ الإسلامي، الذي يحدد مضمون التعايش معهم، كأن يكون ودّياً أو حسناً أو يشوبه القلق.

٣. نفي السبيل على المؤمنين: ويعني أن أي تصرف أو وضع معاهدة تؤدي إلى تفوّق الكافرين على المسلمين يعد ملغياً من أصله (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا)[٣٧] وهذه القاعدة تعد من القواعد الثانوية التي تستطيع الحكم على الأحكام الأوّلية بمجموعها. وهذا التوجه لا يعبّر عن نوع من التكبر، إذ تعمل هذه القاعدة على أساس معايير إنسانية.

٤. التوعية والدعوة: فالتعايش لا يعني تجاوز حقائق الإسلام التي تؤكد على استمرار التوعية والدعوة. ويقتضي التعايش المتوازن والعلاقات السلمية بين فئات المجتمع أن تركز التوعية على أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن: (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولاتتبع أهواءهم)[٣٨].

٥. العدالة: يشكل العدل أهم أصول التصور الإسلامي للواقع، وأهم الأسس عند التعامل الاجتماعي (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله)[٣٩] ولعل الآية الكريمة: (ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى)[٤٠] تعبّر بدقة عن أهمية العدل في معادلات التعايش، حتى في حالات التوتر التي يكاد أن ينسى فيها العدل. ومن خلال النظر إلى طبيعة تعامل دار الإسلام مع غير المسلمين، ندرك البعد الإنساني في عنصر العدل، وهو ما يفسر أيضاً وقوف الإسلام إلى جانب المستضعفين والمحرومين في كل مكان.

٦. تأليف القلوب: في الأجواء التي يحكمها تأليف القلوب، تنفتح النفوس على الحقيقة وتتقرب إلى الواقع ويعود هذا العنصر إلى تشريع سهم المؤلفة قلوبهم في مصارف الزكاة، والذي فتح المجال للوقوف إلى جانب المستضعفين والدفاع عن قضاياهم واجتذابهم نحو الإسلام، والإنفاق عليهم بما يحقق مصلحة الإسلام العليا، وتعميق التعايش الإيجابي بين مختلف اتجاهات المجتمع.

٧. الوفاء بالعهد: ويقصد به الوفاء بكل العهود والاتفاقات التي تعقد بين المسلمين وغيرهم (وأوفوا بالعهد انّ العهد كان مسؤولا)[٤١]. ومن هذه العقود ما صرّح به الإسلام وحدّد لها قوانينها العامة، ومنها ما يرى ولي الأمر ضرورتها لتحقيق مصلحة إسلامية عليا. ومثال الأولى: عقد الهدنة وعقد الأمان، ومثال الثانية: العقود الاقتصادية والعسكرية وغيرها.

٨. التعامل بالمثل: مبدأ جزاء الإحسان بالإحسان، ومبدأ القصاص، مبدآن واقعيان يرتضيهما المنطق الإنساني والتعامل الفردي والاجتماعي، هدفهما ردع الاعتداء واستقطاب القلوب. يقول تعالى: (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم)[٤٢]. وهو يعني باختصار التعامل مع الآخر بالمثل: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبرّوهم وتقسطوا اليهم)[٤٣].

ولعل تجربة الجمهورية الإسلامية الإيرانية في مجال التعايش هي من التجارب المهمة على صعيد التطبيق؛ لما تمثله ايران من دولة تتميز بالتعددية في كثير من المجالات، فهناك أتباع ثلاث ديانات (النصرانية، اليهودية، الزرادشتية) يعيشون إلى جانب المسلمين، وستّ قوميات (الفارسية، التركية، العربية، الكردية، التركمانية، البلوشية)، وثلاثة مذاهب إسلامية، فضلاً عن الجماعات والتيارات الفكرية والسياسية التي أذعنت جميعاً لمعادلات الشورى وآلية الممارسة الديمقراطية. هذه التجربة الفذّة التي أبرزت الوجه المشرق للرؤية الإسلامية في مجالي الحوار والتعايش، جديرة بالدراسة والمراجعة المستمرة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

١- «النظرات الثقافية للإمام الخميني»، إعداد: كبرى أسدي.

٢- «شروط النهضة»، ص١٣٠.

٣- أعدتها منظمة المؤتمر الإسلامي، ص ٥

٤- سورة يونس، ١٩.

٥- سورة المائدة، ٤٨

٦- سورة الزمر، ٣.

٧- النحل، ١٢٥

٨- آل عمران، ٦٦

٩- الحج، ٨.

١٠- الفيض الكاشاني، «المحجة البيضاء في شرح إحياء علوم الدين»، للغزالي، ج١، ص١٠١.

١١- آل عمران، ١٥٩.

١٢- طه، ٤٣ و ٤٤.

١٣- كتاب التوحيد للمفضل - أنظر أيضاً - في مجال أدب المناظرة والحوار - ماورد عن النبي وأهل بيته في كتاب الاحتجاج للطبرسي.

١٤- انظر: الجويني، «الكافية»، ص ٥٤٠، والسعدي، «قاموس الشريعة»، ج٣، ص٦.

١٥- سبأ، ٢٤.

١٦- يقول الغزالي بأن المناظرة لابد أن تدور حول «واقعة مهمة أو مسألة قريبة من الوقوع». انظر «المحجة البيضاء»، ج١، ص١٠٠.

١٧- سبأ، ٤٦.

١٨- للمزيد، أنظر غازي عناية، منافع البحث، ص ٧٦.

١٩- الأعراف، ٧١

٢٠- للكاتب نفسه، «الأسس المهمة في النظام الإسلامي»، ص ١٢٧.

٢١- فصّلت، ٣٣.

٢٢- يوسف، ١٠٨.

٢٣- الشهيد السيد محمدباقر الصدر، «اقتصادنا»، ج١، ص٢٧٥.

٢٤- رواها الحر العاملي في «الوسائل»، ج١١ ص٣٠.

٢٥- الجويني، «الكافية»، ص٥٤٢ - ٥٤٩

٢٦- سبأ، ٢٤

٢٧- «المحجة البضاء»، ج١، ص٩٩ - ١٠٠، و«إحياء علوم الدين»، ج١، ص٤٣.

٢٨- البقرة، ١١١.

٢٩- آل عمران، ٦٤.

٣٠- العنكبوت، ٤٦.

٣١- الأنعام، ١٠٨.

٣٢- النساء، ٦٤.

٣٣- هود، ٥٣.

٣٤- البقرة، ٦ و ٧.

٣٥- المراد هنا الجانب الفني في اللغة أو الخطاب، كاستخدام المصطلحات التخصصية، والمستوى العلمي في التعبير عن الرأي وأسلوب طرحه، والاستفادة من بعض المعارف والعلوم التخصصية، التي ربما يجهلها الطرف الآخر، فيكون الحوار حينها كحوار الطرشان ـ كما يعبرون ـ

٣٦- الكافرون، ٦.

٣٧- النساء، ١٤١.

٣٨- الشورى، ١٥.

٣٩- النساء، ١٣٥.

٤٠- المائدة، ٨.

٤١- الإسراء، ٣٤.

٤٢- البقرة، ١٩٤.

٤٣- الممتحنة، ٨.